

حول رحلة الى أسرة « أبى القاسم الشابى »

.. وملاحظات أخرى ... (*)

وقع نظرى على ما جاء تحت عنوان : « شقيق أبى القاسم الشابى وابنه يكشفان « لليقظة » أسراراً جديدة عن حياته وموته » بتاريخ ١٩٧٥/١/٦ بالكويت . فشرعت فى قراءته بمزيد من التهيؤ والتطلع .. ولكن سرعان ما شعرت - وقبل الانتهاء من القراءة - أن التهيؤ والتطلع راحا يهربان منى .. لأن كلمتى « أسرار » و « جديدة » كان لهما فى هذا الحديث وضع « البناء » الذى أريد له القيام على الرمال !! - بدون جهود مفيدة ، وبلا أساس - فلن يكون . ولهذا لم نحصل على « أسرار » ولا على « جديدة » .

١ - لماذا المقبات وانعدام النتائج ؟

وعندئذ طفق ذهنى يلحظ أو يجمع « الأسباب » - وقد أقول : الاخطاء - التى فرضت على « الحديث » خلوها تماماً من النتائج المرجوة ، وبقي « العنوان » يدعيها . ! مما يشير الى انه وضع - متفائلاً - قبل بداية الرحلة أو قبل نهاية « اللقاء » وأصر السيد « س . م » على التشبث بالعنوان بدون تحوير أو تغيير لاننا - القراء - سوف نسأله : ما هى الاسرار الجديدة التى كشفها لنا شقيق « الشابى » وابنه عن حياته وموته ؟ !

ولو كان فى « الحديث » سر جديد ، واحد ، لاستسمحوا القراء ، واعتذرت للسيد « س.م » لذكره اليهم مرة ثانية . .

(*) مجلة الفكر - فيفري . افريل ١٩٧٦ تونس .

ولعله يعتبر ما ذكره له السيد « عبد الحميد » من أن « الشابي » كان يساعده على نسخ ديوانه « أغاني الحياة » صديق له في « حامة الجريد » – بالجنوب التونسي – لا يذكر اسمه . . سرا جديدا . ! لان ذلك ذكر في مقدمة الديوان ، ولعله من « المفيد » او عرف القراء – المختصون – من هو هذا الصديق * ؟ وما هي ثقافته ؟ وهل تدخل لتغيير بعض الكلمات أو المعاني أو العناوين او لترتيب بعض الابيات داخل بعض القصائد ، او بعض القصائد داخل الديوان ؟ . ولماذا هذا الصديق بالذات ؟ اذ قد يفيد معرفة مثل « هذا » بعض الدارسين .

وهل يعتبر – أيضا – السيد « س.م » ما ذكره له ابنه « جلال » من أن « الشابي » كان يعاني من تضخم في القلب ، وهو سبب وفاته ، وليس بمرض في الصدر ؟ .

لان هذا معروف – أيضا – في الكتب التي تحدثت عنه ، وكما اشار الى ذلك شقيقه المرحوم الاستاذ « محمد الامين الشابي » في المقدمة التي كتبها لديوان « أغاني الحياة » سنة ١٩٥٤ ، وقد نشرت في الطبعة الجديدة للديوان سنة ١٩٧٠

اما ما جاء في الحديث – بعد ذلك – فهو لا يخرج في عمومته عن بعض الاستطرادات التي قد نستعين بها ، أو من خلالها على صياغة بعض الاسئلة ، أو توارد بعض الخواطر التي تفتح أبوابا جديدة للحوار . . لو كانت الرؤية واضحة – ولا أقول الرؤيا – والمهمة

(*) في عدد خاص بأبي القاسم الشابي من مجلة « الفكر » التونسية .
جانفي ١٩٧٥ جاء ما يلي : « بقرية الشابية ، كان الشابي يجلس فوق رمالها البيضاء جاعلا فوق ركبتيه مخدة وكراسا وهو يكتب وأنا املئ عليه الديوان ، حتى رتبته في ثلاث كراسات .. » المقال : « على هامش الذكرى » محمد الازهر
عبد الحميد الشابي .

محددة والاحاطة بالمتحدث عنه - من خلال الدراسات السابقة بما في ذلك آثاره - شاملة حتى نحصل على النتائج التي نطمئن اليها ، لرحلتنا أو لحديثنا ، عندما نتصدى لمثل هذه المهمات أو اللقاءات أو التحقيقات ، بحثا عن « الحقيقة » أو عن البقايا المجهولة لبعض الظواهر والقضايا . . فنكمل « النقص » أو نحدث تغييرا وتعديلا وتصحيحا - اذا لزم - في السابق . وهذا يتأتى على يدى من لهم خبرة ، ومعاناة ، واستيعاب لاساسيات التحقيق الادبى أو السبق الصحفى ، به يقدر صاحبه على انتقاء الاسئلة واعدادها ملائمة لتوليد معلومات طريفة ، وأسرار جديدة . .

فيكون فى مستوى « المشروع » الذى تصدى له تقديرا للمسئولية: ومراعاة لهذا يذكر الآتى :

اين التخطيط للرحلة ، والاعداد لها زمنيا وذهنيا ؟ .

المفهوم - مما قرأت - أن « فكرة » الالتقاء بأسرة « الشابى » خرجت من مجلة « البقطة » (*) بالكويت - وحسب اطلاعى - لأول مرة يخرج الى حيز التنفيذ مشروع فكرة «الالتقاء بأسرة الشابى» لاستقصاء أو لمعرفة ما لم يعرف عنه بعد . .

وقبل الرحلة من «س.م» ورفيقه - الذى اختفى صوته تماما من الحديث - الى تونس عن طريق بيروت ، لهذا الغرض الصحفى - الادبى المفيد ، لو تم على وجهه المطلوب وأتى بنتائجه الممكنة والمرجوة ، كان لابد من التوقف لحظات أو ساعات قبل

(*) عفوا لقد قرأت بصفحة « فكروهن » بجريدة « الصباح » التونسية (السبت ٧٥/١/٢٥) حديثافهمت منه : أن اللقاء بأسرة الشابى تم مع مجلة « الصياد » اللبنانية . دون اشارة من « البقطة » الى ذلك . ! فالى من المقابلة اذن يا ترى ؟؟ لا سيما وفي الحديث ما يشير الى أن الرحلة ابتدأت من بيروت. اين الحقيقة ؟ .

الشروع في الرحلة من أجل الاتصال بالملحق الثقافي الاستاذ الشاعر « الشاذلي زوكار » بسفارة تونس بالكويت ، لمعرفة الامكانيات المتاحة هناك والتي تساعد على نجاح رحلة « الالتقاء » الادبية داخل تونس . لان الاستاذ « زوكار » على معرفة بالنشاطات الادبية والصحفية هناك من الخمسينات ، وعلى اتصال بنواديبها ، وبجمعياتها الادبية فهو الذي انشأ « رابطة القلم الجديد » ، بالإضافة الى ان تونس أصبحت في السنوات الاخيرة من البلاد النامية التي تبذل عناية كبيرة في الاهتمام بالسياحة ، وما يلقاه الزائر من رعاية وتسهيلات وخدمات سياحية ، تستهدف راحته واطمئنانه واستفادته : متى راعى الدقة والنظام في تحركاته . ولو اخذ في الاعتبار شيء من هذا ، لامكن أن يضمن للرحلة الكثير من النجاح . وعندئذ نتفادى الكتابة في مطلع « الحديث » بهذا الاسلوب المتباكي الذي يذكرنا بـ « قفا نيك » : « لأول مرة خيل إلينا قطعنا آلاف الكيلومترات من بيروت الى تونس سدي ، وأن البحث عن العنقاء ، والخل (أي الودود) أيسر بكثير من البحث عن أسرة الشاعر « أبي القاسم الشابي » وكان يعز علينا أن نعود الى بيروت ، كما عاد حنين خلو الوفاض ، وبدون طائل . . » « عدنا من حيث أتينا والمرارة تعصر قلوبنا » .

ولماذا كل هذا النغم الحزين !! وهل نحن امام هزيمة ١٩٦٧ أم هل احترقت روما ؟ ان التهويل في غير مكانه يثير في الطرف الآخر الضحك ويجرد الموضوع المتحدث عنه من قيمته الحقيقية ، لان جدودنا تركوا لنا في البلاغة والاساليب العربية قواعد ابتدائية : « لكن مقام مقال » . لكننا نسمع كثيرا - ولا نحسن الاستماع - ونتكلم أكثر ، ولا نفعل الا القليل . ! مع أن أسلوب اللغة العربية يعطى الاولوية في الجملة لكلمة « الفعل » لكن بعض الصحافة العربية اعتادت التهويل ، والاثارة ، والبعد عن الامانة في مخاطبة الوجدان والعقل العربي ، فعم الضلال ، مثلما كثر

أبي القاسم الشابي « أن يدلوا بعثة مجلة « اليقظة » القادمة من الخليج العربي أو من الشرق العربي على أسرة الشابي أينما كانت بتونس ، وبدون دخول في « دوامة » كما قيل : « . . لكن الدوامة التي ودعناها في تونس العاصمة ، لم تنسنا ، بل انها لاحقتنا على مدى كل هذه المسافة الشاسعة التي قطعناها بحثا عن أسرة الشابي في مسقط رأسه ، هنا أيضا لاحقتنا الشفاء المقلوبة والدهشة ، ولم يستطع أحد أن يعطينا الجواب الشافي . » وهذا لاننا نهرع للعمل بدون تخطيط ، فتأتي النتائج دون المؤمل ، عندئذ نهرع ثانية الى البكاء والتهويل ، ونلقى باللوم على غيرنا ، أو نوحى بذلك .

ب - كذلك كان في الامكان الاستفادة أو الاستعانة بالاستاذ « محمد الحليوي » وهو أحد أصدقاء الشابي والمفرمين به - والباقي على قيد الحياة - ومعرفته به متينة وبأسراره دقيقة ، حيث كانت بينهما رسائل متبادلة تخبر عن صداقة عظيمة ، أما الاستاذ « أبو القاسم محمد كرو » (*) وهو أول من درس « الشابي » وعرف به في الشرق العربي في ذلك الوقت من خلال كتابه الاول عنه « الشابي . . حياته وشعره » وله كتب أخرى عنه .

ج - الالتقاء بالاسرة - في حدود ضيقة - كما لم يأت بجديد . .

٣ - عدم القدرة على توليد المعلومات . . وحيوية الحوار :

الاسئلة التي طرحت على الاستاذ « عبد الحميد » شقيق أبي القاسم الشابي لم تكن كافية لمعرفة ما يمكن - أو ما ينبغي - معرفته عن أخيه ، وهو الذي عرفه شابا : « ويصحبني معه في

(*) نشر له « دليل موجز » من مصادر الشابي ومراجعته . مجلة الفكر أبو القاسم الشابي « عدد خاص شهر يناير - جانفي ١٩٧٥ تونس .

الشروع في الرحلة من أجل الاتصال بالملحق الثقافي الاستاذ الشاعر « الشاذلى زوكار » بسفارة تونس بالكويت ، لمعرفة الامكانيات المتاحة هناك والتي تساعد على نجاح رحلة « الالتقاء » الادبية داخل تونس . لان الاستاذ « زوكار » على معرفة بالنشاطات الادبية والصحفية هناك من الخمسينات ، وعلى اتصال بنواديها وبجمعياتها الادبية فهو الذى أنشأ « رابطة القلم الجديد » ، بالإضافة الى ان تونس أصبحت في السنوات الاخيرة من البلاد النامية التى تبذل عناية كبيرة في الاهتمام بالسياحة ، وما يلقاه الزائر من رعاية وتسهيلات وخدمات سياحية ، تستهدف راحته واطمئنانه واستفادته : متى راعى الدقة والنظام في تحركاته . ولو اخذ في الاعتبار شيء من هذا ، لامكن أن يضمن للرحلة الكثير من النجاح . وعندئذ نتفادى الكتابة في مطلع « الحديث » بهذا الاسلوب المتباكى الذى يذكرنا بـ « قفا نيك » : « لأول مرة خيل إلينا قطعنا آلاف الكيلومترات من بيروت الى تونس سدى ، وأن البحث عن العنقاء ، والخل (اى الودود) أيسر بكثير من البحث عن أسرة الشاعر « أبى القاسم الشابي » وكان يعز علينا أن نعود الى بيروت ، كما عاد حنين خلو الوفاض ، وبدون طائل . » .. « عدنا من حيث أتينا والمرارة تعصر قلوبنا » .

ولماذا كل هذا النغم الحزين !! وهل نحن امام هزيمة ١٩٦٧ أم هل احترقت روما ؟ ان التهويل في غير مكانه يثير في الطرف الآخر الضحك ويجرد الموضوع المتحدث عنه من قيمته الحقيقية ، لان جدودنا تركوا لنا في البلاغة والاساليب العربية قواعد ابتدائية : « لكن مقام مقال » . لكننا نسمع كثيرا - ولا نحسن الاستماع - ونتكلم أكثر ، ولا نفعل الا القليل . ! مع ان أسلوب اللغة العربية يعطى الاولوية في الجملة لكلمة « الفعل » لكن بعض الصحافة العربية اعتادت التهويل ، والاثارة ، والبعد عن الامانة في مخاطبة الوجدان والعقل العربى ، فعم الضلال ، مثلما كثر

الارتزاق بـ « الكلمة » والبعد بها عن « التنوير » .

إن الذي يقرأ « الحديث » يدرك ، وكأن السيد « س.م. » يريد أن يلقي بالمسؤولية على التونسيين الذين صادفهم بالمقهى . أو بالشارع عندما لم يتصرفوا - إليه - بهذه الطريقة « السحرية » : « شبيك ليك ، أسرة الشابي بين يديك » ! ما هذا ! ؟ « ما هكذا توالل الكتف » أيها الاخ !

ولعلك اطلعت على العديد من التحقيقات والاحاديث واللقاءات الصحفية - الادبية وما لها من استعدادات ، ومن تهيئة ذهنية وزمنية ، حتى لا تنعدم النسبة بين « المصاريف » المادية وبين « المكاسب » المعنوية .

هل خطر على بال السيد « س.م. » تحديد موعد قبل الانلقاء بسرة الشابي .

لان المتعارف عليه في المجتمع المعاصر ، حين نريد مقابلة شخص أو زيارته في منزله ، نسعى أولا لتحديد « موعد » معه - مراعاة لكل الظروف ، وكل الاستعدادات - لا سيما اذا كانت « أسرة » كاملة ، وتفصلنا عنها آلاف الاميال ، ونحن نعلق على الالتقاء أهمية ما .. أو سبقا أدبيا .

لكن يظهر من « الحديث » لم يكن في النية مراعاة ظروف الآخرين . ! - والفردية طالما حدث من نجاح مشروعاتنا - والزمن ، زمنه وحده . ! حيث يقول : « كنا في صراع مع الزمن ، وكان علينا أن نفادر تونس الى بيروت في الغد ، ولم نكن قد عثرنا بعد على أي فرد من أفراد أسرة الشابي . وصلنا تونس ظهرا » .

اذن يظهر هنا عدم التخطيط للرحلة زمنيا .

٢ - معلم « تنير » ثم يلتفتا ليها ! .

١ - كان في الامكان الاستفادة من « نادى ابي القاسم الشابي » وهو علي ما اعتقد يبذل عناية خاصة بالشاعر - الى جانب اهتماماته الاخرى - فقد اقيمت له عدة مهرجانات ، وفي مناسبات مختلفة . . والسيد « س.م » اشار الى بعض هذا مدعيا لنفسه المعرفة اكثر بحياة الشابي ، وعلى بعض ابناء تونس الجهل بها ، الامر الذي حز في نفسه مع رفيقه فقال : « على ان الذي حز في نفوسنا ان كثيرا من ابناء تونس الخضراء لا يعرفون عن حياة شاعرهم ابي القاسم الشابي الذي يحتفلون الآن بذكرى وفاته الاربعين ، لا يعرفون الا النزر الذي لا يفي بضالتنا ولا يروى ظمأنا . . » وقال بعد ذلك ، وكأنه يرجم بالغيب او كأن لاسئلته ذكاء خارقا ، او هي المفاتيح لكل ما اغلق حول « الشابي » مستعملا تعابير مطلقة ، يبتعد عنها الانسان « المثقف » بل نصف المتعلم فيقول : « وكان كثير منهم يقلب شفثيه باستغراب حين نسأله عن ابناء « الشابي » بل ان بعضهم كان يقول والدهشة تعقد عقله (المعروف : الدهشة تعقد لسانه ، ولعل هذا من الاختراعات الجديدة في الكليشيه) وهل تزوج الشابي ؟ لقد كان مريضا ، ومات قبل الثلاثين . ولانعتقد انكم تبحثون عن شيء موجود في هذا العالم » ولعل التعبير الاخير بعيد عن طبيعة التونسي وعن ميله الى « الاعتدال » والمنطق ، وعدم المبالغة .

معذرة اذا سألت : هل جاء السيد « س.م » يرغب « الالتقاء » بأسرة الشابي ، وبدون موعد سابق ؟ . أم جاء ليختبر ابناء تونس فيما يعرفونه عن شاعرهم ؟!

واميل الى ان اكون لطيفا معه : الحق ، اقله ، له : لا يعرف ماذا يريد ؟ . ولا كيف يريد ؟ . لانه كان في امكان اعضاء « نادى

أبي القاسم الشابي « أن يدلوا بعثة مجلة « اليقظة » القادمة من الخليج العربي أو من الشرق العربي على أسرة الشابي أينما كانت بتونس ، وبدون دخول في « دوامة » كما قيل : « .. لكن الدوامة التي ودعناها في تونس العاصمة ، لم تنسنا ، بل انها لاحقتنا على مدى كل هذه المسافة الشاسعة التي قطعناها بحثا عن أسرة الشابي في مسقط رأسه ، هنا أيضا لاحقتنا الشفاه المقلوبة والدهشة ، ولم يستطع أحد أن يعطينا الجواب الشافي . » وهذا لاننا نهرع للعمل بدون تخطيط ، فتأتي النتائج دون المؤمل ، عندئذ نهرع ثانية الى البكاء والتهويل ، ونلقى باللوم على غيرنا ، او نوحى بذلك .

ب - كذلك كان في الامكان الاستفادة أو الاستعانة بالاستاذ « محمد الحليوي » وهو أحد اصدقاء الشابي والمفرمين به - والباقي على قيد الحياة - ومعرفته به متينة وبأسراره دقيقة ، حيث كانت بينهما رسائل متبادلة تخبر عن صداقة عظيمة ، اما الاستاذ « ابو القاسم محمد كرو » (*) وهو أول من درس « الشابي » وعرف به في الشرق العربي في ذلك الوقت من خلال كتابه الاول عنه « الشابي .. حياته وشعره » وله كتب أخرى عنه .

ج - الالتقاء بالاسرة - في حدود ضيقة - كما لم يأت بجديد ..

٣ - عدم القدرة على توليد المعلومات .. وحيوية الحوار :

الاسئلة التي طرحت على الاستاذ « عبد الحميد » شقيق أبي القاسم الشابي لم تكن كافية لمعرفة ما يمكن - او ما ينبغي - معرفته عن أخيه ، وهو الذي عرفه شابا : « ويصحبني معه في

(*) نشر له « دليل موجز » من مصادر الشابي ومراجعته . مجلة الفكر
أبو القاسم الشابي « عدد خاص شهر يناير - جانفي ١٩٧٥ تونس .

نزهاته « وهو - كما جاء في الحديث معه - يعد عنه «الدكتوراه» وكان يجب أن نعرف - في خطوطه المريضة - ماذا بقى عن الشابى يصلح لاعداد دكتوراه ؟ . وماذا له من أسرار عن طفولته ، وتربيته ، وثقافته ، وحياته الاجتماعية ، وعلاقاته بأسرته . . لننظر في ذلك كله من خلال شعره ، رغبة في التفسير السليم وارتباطه بحياته لا سيما وقصائد الديوان مؤرخة .

لان « الشعر » لديه يعبر عن ذاته ويظهرها ، ولا يقوله الا اذا
اوتضاه ضميره :

شعرى نفاثة صدرى ان جاش فيه شعورى
لولا ما انجاب عنى غيم الحياة الخطير

* * *

حسبى اذا قلت شعرا ان يرتضيه ضميرى

كما ذكر السيد « س.م » انه التقى بالاستاذ « جعفر ماجد »
وعرف منه بأنه ايضا يعد دكتوراه عن أبى القاسم الشابى .

ولعله كان على السيد « س.م » أن ينتبه لاحد الدارسين ،
ليسأله ماذا ترك أحدهما للآخر من جوانب او فجوات ، سوف
لن يتناولها بالدراسة وهى تصلح لاعداد دكتوراه ثانية ، في بلد
واحد ، وعن شاعر واحد ، وفي فترة زمانية واحدة ومن زميلين
يدرسان في كلية واحدة . اذا عرفنا ان انتاج « الشابى » المنشور
ديوان شعر واحد هو « أغاني الحياة » ومحاضرة عن « الخيال
الشعرى عند العرب » طبعت في كتاب صغير ، ثم مذكراته طبعت
تحت عنوان : « مذكرات الشابى » ومقدمة كتبها لديوان « الينبوع »
لصديقه المرحوم « أحمد زكى أبو شادى » طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٤

قد كنت في زمن الطفولة ، والسذاجة والظهور
أحيا كما تحيا البلابل ، والجداول ، والزهور
لا نحفل ، الدنيا تدور بأهلها ، أو لا تدور

كما أنه يتحدث عن « الام » في شعره بما لا يدع ريبة أو حيرة -
أو شفقة ، حيث عاش حياة طبيعية مع « أمه » يجد فيها كل
ما تبذله وما تقدمه « الام » عن طوعية وتلقائية من محبة وعطف
وحنان ورعاية وعناية ، وفناء في اسعاد ابنها ، حيث يقول في
قصيدة « قلب الام » - وقبل وفاته بثلاث سنوات تقريبا - والتي
استغرقت ست صفحات في الديوان :

أعرفت هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحود ؟
هو قلب أمك ، أمك السكرى بأحزان الوجود

* * *

هو ذلك القلب الذي مهما تقلبت الحياة
سيظل يعبد ذكرياتك : لا يمل ولا يميل

ويقول في قصيدة « حرم الامومة » : - وقبل وفاته بحوالي
شهرين -

حرم الحياة بطهرها وحنانها هل فوقه حرم أجل وأقدس ؟
بوركت يا حرم الامومة والصبا كم فيك تكتمل الحياة وتقديس

كذلك نجد شعره في رثاء والده ، وعمره عشرون سنة - قبل
وفاته بخمس سنوات - في قصيدته : « يا موت » يدلنا على الود
المتبادل بينهما ، وعلى المحبة العميقة المقدسة بين « الابن وأبيه »
الى درجة أنه رام الموت وتمناه بدل أن يعيش يتيما محروما من
أبيه ، لانه كل شيء في حياته فهو : حبه ، وموطن سره ، وغابه

نزهاته « وهو — كما جاء في الحديث معه — يعد عنه «الدكتوراه» وكان يجب أن نعرف — في خطوطه العريضة — ماذا بقى عن الشابي يصلح لاعداد دكتوراه ؟ . وماذا له من أسرار عن طفولته ، وتربيته ، وثقافته ، وحياته الاجتماعية ، وعلاقاته بأسرته .. لننظر في ذلك كله من خلال شعره ، رغبة في التفسير السليم وارتباطه بحياته لا سيما وقصائد الديوان مؤرخة .

لان « الشعر » لديه يعبر عن ذاته ويظهرها ، ولا يقوله الا اذا ارتضاه ضميره :

شعري نقاة صدى ان جاش فيه شعورى
لولا ما انجاب عنى غيم الحياة الخطر

* * *

حسبى اذا قلت شعرا ان يرتضيه ضميرى

كما ذكر السيد « س.م » انه التقى بالاستاذ « جعفر ماجد » وعرف منه بأنه ايضا يعد دكتوراه عن أبى القاسم الشابي .

ولعله كان على السيد « س.م » ان ينتبه لاحد الدارسين ، ليسأله ماذا ترك أحدهما للآخر من جوانب او فجوات ، سوف لن يتناولها بالدراسة وهى تصلح لاعداد دكتوراه ثانية ، في بلد واحد ، وعن شاعر واحد ، وفي فترة زمنية واحدة ومن زميلين يدرسان في كلية واحدة . اذا عرفنا ان انتاج « الشابي » المنشور ديوان شعر واحد هو « أغاني الحياة » ومحاضرة عن « الخيال الشعري عند العرب » طبعت في كتاب صغير ، ثم مذكراته طبعت تحت عنوان : « مذكرات الشابي » ومقدمة كتبها لديوان « الينبوع » لصديقه المرحوم « أحمد زكى أبو شادى » طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٤

واخيرا بعض رسائل بعث بها الى بعض الاذباء والاصدقاء طبعتم
تحت عنوان « رسائل الشابى » .

لا يفهم من هذا ، التقليل من قيمة الشابى الادبية والفنية ،
او النظر اليه نظرة كمية لا كيفية . وانما من اجل التحديد ،
وتوزيع الاهتمام ، وحتى لا تبقى اعتباراتنا واهتماماتنا باستمرار
« فردية » ! . او نسمع الكلام دون الوقوف عنده لنختبر مدى قرب
من مقاييس العقل والمنطق ، والدراسة العلمية .

اما عن ابنه المهندس « جلال » فكان فى الامكان الاستفادة منه
— ونحن نعلم بأنه ولد قبل وفاة ابيه بتسعة شهور — لو كانت لدينا
اسئلة محددة ، او تمهيد به تظهر شخصية الاب الشاعر ، فلتجتمع
له عن ابيه الخواطر وتتزاحم ويتهاى عالمه الشعورى او « الاشعورى »
— ايضا — ليفضى ببعض الاسرار او الكوابت « او التعليقات
والتي سيكون قد استنتجها من خلال ما سمعه عن والده ، او
فراه عنه او رويت له بطريقة ما ، وقد نعرف منها علاقة « الشابى »
بمن حوله ؟ وكيف كان يتعامل مع الآخرين ؟ وكيف كانوا يعاملونه ؟
لانه ليس لنا من مرجع نتأمل فيه هذا ونعود اليه الا شعره
و « الحساسىة » نحو ما عداه والوجوم فى شعره قائم ، لنستمع
اليه يقول فى قصيدة « الاشواق التائهة » وقبل وفاته بثلاث
سنوات :

يا صميم الحياة ! انى وحيد مدليج ، تائه ، فأين شروقك !
يا صميم الحياة ! انى فؤاد ضائع ، ظلمىء ، فأين رحيقك ؟

يا صميم الحياة ! كم انا فى الدنيا غريب ! أشقى بقرية نفسى
بين قوم لا يفهمون اناشيد فؤادى ، ولا معانى يؤسى
فاحتضنى ، وضمنى لك — كالمضى — فهذا الوجود علة يأسى

بعد ذلك يمكن أن نخرج ببعض المعلومات من خلال تصفحنا
لأثاره « مخطوطة » لدى ابنه جلال . وقد نطلع كذلك على مكتبته ،
وكيف كان يتعامل مع الكتب بين يديه ؟ هل يترك على صفحاتها
بعض التعليقات أو الملاحظات أو علامة ما ؟ . وهل نجد كتباً ضمن
ما تركه منها ، تبدو لأول وهلة غريبة عن تكوينه الفكري : « الثائر
المتنرد » وعن شاعريته التي ترفض القيود والحدود .. يقول في
قصيدته « قلب الشاعر » قبل وفاته بخمسة شهور :

ههنا ، الف خضم ثائر خالد الثورة ، مجهول الحدود
ههنا ، في كل آن تمحى صور الدنيا، وتبدو من جديد

ويقول مخاطباً « الشعر » في قصيدة « يا شعر » :

فيك انطوت نغسى ، وفيك نفخت كل مشاعري
فاصدح على قمم الحياة بلوعتي ، يا طائري

أما لو تم « الالتقاء » بوالدة الشاب وبزوجته - والابنتان على
قيد الحياة كما عرفنا - ولكل منهما ظل في شعره واثر .. فلا بد
كل واحدة منهما تعرف عنه بعض الاخبار أو الاسرار أو الحوادث
أو الاقوال الماثورة . وباعتبارهما - كذلك طرفان متقابلان : « أم »
و « زوجة » ، كنا لا محالة سنخرج ببعض الاسرار عن حياة
الشاب وموته ، ومهما كانت ضئيلة .. ومن خلالها نستطيع أن
نتأمل شعره وأن نحاول على ضوءها فهم وتفسير ما استعصى على
ذلك .

٤ - نفسية سوية من خلال شعره :

نحن نعرف أن الشاب يعتز بطولته ، ويحتفظ لها بذكرات
جميلة وبمشاعر عذبة ، فيتغنى بها في قصيدة « الجنة الضائعة »
قبل وفاته بحوالى سنة ، بما لا أروع ولا أبداع . من ذلك :

قد كنت في زمن الطفولة ، والسذاجة والظهور
أحيا كما تحيا البلابل ، والجداول ، والزهور
لا نحفل ، الدنيا تدور بأهلها ، أو لا تدور

كما انه يتحدث عن « الام » في شعره بما لا يدع ريبة أو حيرة.
أو شفقة ، حيث عاش حياة طبيعية مع « أمه » يجد فيها كل
ما تبذله وما تقدمه « الام » عن طوعية وتلقائية من محبة وعطف
وحنان ورعاية وعناية ، وفناء في اسعاد ابنها ، حيث يقول في
قصيدة « قلب الام » - وقبل وفاته بثلاث سنوات تقريبا - والتي
استغرقت ست صفحات في الديوان :

أعرفت هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحود ؟
هو قلب أمك ، أمك السكرى بأحزان الوجود

هو ذلك القلب الذي مهما تقلبت الحياة
سيظل يعبد ذكرياتك : لا يمل ولا يميل

ويقول في قصيدة « حرم الامومة » : - وقبل وفاته بحوالي
شهرين -

حرم الحياة بطهرها وحنانها هل فوقه حرم أجل وأقدس؟
بوركت يا حرم الامومة والصبا كم فيك تكتمل الحياة وتقديس

كذلك نجد شعره في رثاء والده ، وعمره عشرون سنة - قبل
وفاته بخمس سنوات - في قصيدته : « يا موت » يدلنا على الود
المتبادل بينهما ، وعلى المحبة العميقة المقدسة بين « الابن وأبيه »
الى درجة أنه رام الموت وتمناه بدل أن يعيش يتيما محروما من
أبيه ، لانه كل شيء في حياته فهو : حبه ، وموطن سره ، وغابه ،

ومحرا به ، واغنيت ه ، وفجرة ، وعمدته ومشورته في كل امر ،
ودرعه الواقى كل شر ، وهو الوجه الذى لا يعبسه ولا يكره
الا رؤية ابنه حزينا .

يا موت ، قد مزقت صدرى وقصمت بالارزاء ظهرى
وفجعتنى فيمن احب ومن اليه ابث سرى
واعده : غابى ، ومحرا بى ، واغنيتى ، وفجرى
ورزاتنى فى عمدتى ، ومشورتى فى كل امرى

ان شرح هذا وتحليله يطول ، وهو فى نفس الوقت بين وواضح
على ان علاقة « الشابى » بأبيه طبيعية ، تخلو من « العقد » ومن
انواع « الكبت » بل انه يرى : « ما اشقى الذى يقضى الحياة بمثل
امره » !!

تذلك نجد نظرت ه الى « المرأة » - فى شعره - نظرة واعية ،
فهو يحبها بقلبه وبفكره وبحواسه ، وبفنه .. فلا تعثر على معنى
« الاحتقار » او سقطة من سقطات « رد الفعل » او حركة او اشارة
تبين عن عقدة من « العقد » تجاهها لسبب من الاسباب مثلما
نجد عند بعض الكتاب والشعراء والفلاسفة ، قديما وحديثا ، ولن
نتورط فنقول : لانه عرف « المرأة » معرفة نظرية مجردة ، قبل
زواجه ، فأحب المرأة « المثال » وتغزل بها فى المرأة عموما .. لان
هذا القول يدحضه شعره ، حيث انه فى قصائد كثيرة يتحدث عن
نساء معينات ، لكل واحدة صفات وسوف اكتفى هنا بالاشارة
الى قصيدة « الساحرة » - ولعلنى ارى فيها زوجته - كتبها
بتاريخ ١٩ جويلية - يوليو ١٩٣٢ وكانت وفاته يوم ٩ اكتوبر ١٩٣٤
يقول فيها :

راعها منه صمته ووجوه وشجاها شحوبه وسهومه
فأمرت كفا على شعره العارى برفق ، كأنه ا ستنيمه

واظلت بوجهها الباسم الحلو على خده وقلبت تلومه :
خل عيب الحياة عنك وهيا بمحيا، كللصبح، طلق أدبه .

لعلنا قد اتفقنا - من خلال شعره - على احساسه السوى ،
ووجدانه الانساني ومشاعره « الطبيعية » - كغمان وشاعر في نظريته
الى ما ومن حوله - فلم نلاحظ ضيقا او تبرا او شكوى من
« أشياء » او « تصرفات » اثارته ، وتركته يحتفظ بذكرات مؤلمة
او مثبطة تجاه : طفولته ، أو علاقته بأبيه أو بأمه أو بمن عرفهم
أو احبهم من « الجنس الآخر » بما في ذلك زوجته .

ولا اعتقد ان حديثه عن هؤلاء جميعا ، جاء مطابقا لما يجب ان
يكون في ذهنه وفي خياله واحلامه من سمو وقداسية ونموذجية
ومثالية ، وهو الشاعر الرومانتيكي . فصب تلك « الصور » او
« النماذج » في هذه القوالب من النغم .. حيث تكون نظرة الشاعر
باستمرار وتقديراته مبالغة الى النموذج والمثال .. وبذلك فحسب
يكون اقتناعه .. فعالم الخلق والابداع لديه يستأثر به « المثال »
في الحسن والقبح « الفنيين » فهو يصور ما يجب ان يكون ، أو
ما يجب ألا يكون .

لهذا سوف تبقى معرفتنا أو اطلاعنا بمن أو بما حوله محدودة،
وواحدة المصدر - الذي هو شعره فقط - الامر الذي يجعلنا
غير مطمئنين الى تلك « الاستنتاجات » حتى تظهر مصادر أخرى
مع شعره تؤكد لنا أو تضيف ما يمكن اضافته الى معارفنا عنه .

٥ - مصادر شاعريته :

المؤثرات - وقد اقول المصادر - لشاعريته غير مكتملة الواضوح
« علميا » أو « موضوعيا » بالاضافة الى انفراده بذلك، عن اقترانه

ومعاصريه و « اخوته » وقد كانت وسائل المعرفة والاطلاع لديهم أكثر تنوعا ، ولا أريد أن أتطرق هنا الى ما يسمى « الموهبة » أو « الإلهام » .. إذ ليس ذلك أكثر من « استعداد » أو « ميل » ينمو بالرعاية والعناية ويخبو بالأعمال .. وأمام هذا تتراجع كل الأفكار التي تزعم أن الأديب إنسان ملهم ، توحى إليه الآلهة (*) أو الشياطين (**). بشعره .

اذن فما هي « الرعاية » أو « العناية » التي كان يلقيها « الشبابي » والتي خلقت منه شاعرا عبقريا ، لأن بعضهم يوعز بشيء من شاعريته الى تأثير « الطبيعة » الجميلة في تونس ، وهذا سرى على غيره فلماذا لم يزهر شعرا ؟! وآخرون يضيفون الى ذلك « تأثره بأدب المهجر » وهذا - أيضا - شمل غيره فلماذا لم يشمر أدبا ؟! وعندئذ نقول كذلك : لكتابه « الخيال الشعري عند العرب » اتصال بكتاب : « الفربال » لميخائيل نعيمة ، ولكننا نلاحظ للشبابي شخصيته وأصالته وتفردته مما يجب بحثه في مكانه .

وهل نقول كذلك : ان « الالم » ساهم في خلق عبقريته الشعرية ، وأمدّها بالعمق والتفرد والشفافية المتوغلّة في الصوفية أحيانا . فكانت بمقام « التعويض » أو الدافع وبضيق المجال لو أشرنا الى نتائج النقاد والعلماء في اتصال « العبقرية بالالم » ولكنني سأذكر مثالا واحدا له اتصال مباشر بالعبقرية والالم - وليس كدأرس ملاحظ في غيره من بعيد - ذلك هو الكاتب القصصي المسرحي « أنطون تشيخوف » (١٨٦٠ - ١٩٠٤) عانى « الالم » في نفسه وفي غيره - كان طبيبا ومات بداء الصدر - وانصرف للأدب والفن فترك تراثا ضخما ، ظهرت فيه عبقريته .. وقد عالج

(*) عرف ذلك عن قدماء اليونان .

(**) عرف ذلك عن شعراء العرب .

في مسرحيته : « النورس » (١٨٩٤) : مشكلة العوامل التي تخلق الفنان الموهوب ، فكل من البطلين الشابين « كونستانتين » و « نينا » يحاول النجاح في مضمار خاص من الفن .. هذا في الكتابة ، وتلك في التمثيل .. والامر المهم في نظر تشيخوف هو مثابرة « نينا » في طريقها الى النجاح ، فهي تتحقق أخيرا من أن « الالم » هو الذى يخلق الفنان المبدع ، لانه يكون عنده قدرة على الاحتمال تمكنه من متابعة سيره وتحقيق أهدافه .. « تقول « نينا » : « ان ما يهمنى سواء كنا كتابا أو ممثلين ليس هو الشهرة أو التالىق أو تحقيق الاحلام ، وانما هو القدرة على التحمل . تعلم كيف تحمل صليبك وتحفظ بايمانك » .

ونلاحظ هنا ليس المقصود بالالم - فقط - ما كان سببه المرض والعاهات ، بل هو كل ما يثير ثورة في النفس فيتحرك « الانسان » أو يستعد - فكريا ووجدانيا - ليدع وينشئ أو يغير ما كان راكدا وجامدا . وقد يكون « تطهيرا » - كما أشار أرسطو - ذلك الاثر الفنى لمبدعه أو لمتلقيه .

٦ - نقمته وتمرده :

مما تقدم يطرح من جديد : قضية نقمة الشابي وتمرده :

يا ربة الشعر والاحلام غنيى	لقد سئمت وجوم الكون من حين
على الحياة انا ابكى لشقوتها	فمن اذا مت يبكيها ويبكىنى؟
ياربة الشعر، غنيى فقد ضجرت	نفسى من الناس ابناء الشياطين

وهكذا هرب الى « الطبيعة » لان الواقع البشرى البائس لبنى قومه يضيق عن احلامه وافكاره وامانيه ، شأنه شأن الرومانتيكيين :

يا لها من معيشة في صميم الغاب تضحى بين الطيور وتمسى !

يا لها من معيشة ، تدنسها نفوس الورى بخبث ورجس
كان في كوخه الجميل مقيما يسأل الكون في خشوع وهمس
عن مصب الحياة ، أين مداه؟ وصميم الوجود ، أيا ن يرسى؟

وقد رأى نفسه « النبی المجهول » فوق خطيبا - يذکونا
بالحجاج بن يوسف في اهل العراق :

أيها الشعب! ليتني كنت خطابا فأهوى على الجدوع بفاسي !
ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهد القبور رمسا برمي !
ليتني كنت كالرياح ، فاطوى كل ما يخنق الزهور بنحي !

لأنهم « لم يفهموا اناشيده ولا معاني يؤسه » .

لكن حبه لشعبه ولامته ووطنه ، ثم احساسه العميق بالحقيقة،
وما لذلك من تأثير على قلبه ووجدانه . . نثر أمامنا وأمام نفسه
المثالة « الاسباب » التي احدثت تلك « الهوة » بينه وبين شعبه
- حتى يبرى نفسه من الحقد والضغينة وتبقى النقمة قائمة -
فخطب وقد تأسى لنفسه وتألم متفردا :

أيها الشعب! انت طفل صغير لأعب بالتراب والليل مفس !
انت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ، ذات بأس
انت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من امس امس .
والشقى الشقى من كان مثلى في حساسيتي ورقة نفسي

لقد كانت له الثقة بالشعب ، فكتب سنة ١٩٣٣ - وقبل وفاته
بسنة تقريبا - قصيدة « ارادة الحياة » وهي اروع ما كتب الشابى

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر
اذا طمحت للحياة النفوس فلا بد ان يستجيب القدر !

٧ - اجسايى بالبيئة والعصر .. وظهور « الفردية » :

لقد كان الشايى معبرا عن عصره ومتفاعلا معه ، ومع بيئته .
فرصد عن قرب : الظلم والتضليل اللذين كانا يحكماى شعبه .
ويرهقان وجوده : الإستعمار الفرنسى والرجعية - ومن ارتبطت
ارتبت مصالحه بهما - فنشرا الجهل والمرض والفقر .. وعندئذ لابد
من ظهور « العبقرىات الفردية » وقد تجمع فيها او نما ما افتقد
او اخمد - للإبسات وظووف - فى الآخرين .. ذلك لانه أوان
ظهورها ، فكان « الشايى » عبقرىة فردية فى مجاله - مثلما وجدت
عبقرىات فردية ، أخرى فى مجالاتها - وحينئذ تجد هذه الفردية
فرصتها فى الالتفاف حولها - أو الخروج عليها - وهكذا تكتسب
« المحورية » فى قرارة نفسها ولدى الآخرين .

والقيادة الفردية أو الانقياد للفردية ، ظاهرة عرفها الانسان
منذ شروعه فى البحث عن « اله » يحتفى به ، ويقدم اليه القرابين ،
متى رأى فيه جانبا من جوانب القوة أو العظمة أو عجز عن تصوره
أو الإحاطة به ، لان « البطولة الفردية مهمما يتنوع مدلولها
فانها لا يمكن ان تتفق مع الحتمية العلمية » هى بعد ذلك تشد
الانظار والعقول والقلوب - أحيانا - اليها وتسد المعالم وانطرق
عن اكتشاف آخرين ، وقد تنتهى ظروفها قبلها ، لكنها تبقى قائمة
مسيطرة على تفكيرنا وسلوكنا ، مع تطور الزمن وتقدمه ، وتغيره .
وقد تصبح من « الثوابت » لكل عصر ، لان « المطلق » و « المثال »
و « الفرد » يشد انتباهنا أكثر من غيره ! . ولاننا عندما نحاول
بحث الظاهرة نخرج بها عن اطارها الحقيقى ، ونعطىها تعميمات
تنسيىنا الدقة معها ، ونتخاذل فى البحث عن الجذور متسرعين الى
السطح ، فتكون المفاهيم أو « النتائج » ذاتية تأثرية ، ولذلك تبقى
« الظاهرة » باستمرار تملأ علينا حياتنا ، لانها لم تستوف حقاها .
بحثا وموضوعية .

ومن هناك يكثُر تعدد أو تعاقب الباحثين - وبتسمية أدق من المتكلمين عن تلك الظاهرة مع عدم التوصل الى نتائج جديدة او هي ذات أهمية ..

٨ - خاتمة : في منهج الدراسة « المبدع » :

رايت أن اختتم ملاحظاتي بالإشارة الى مذهب « سانت بيف » « ١٨٠٤ - ١٨٦٩ » في النقد أو البحث الأدبي ، حيث « .. دعا الى دراسة علمية تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم بأوطانهم وأممهم ، وعصورهم ، وآبائهم ، وأمهاتهم ، وأسرهم ، وتربيتهم ، وامزجتهم ، وثقافتهم ، وتكويناتهم المادية والجسمية ، وخواصهم النفسية والعقلية وعلاقاتهم بأصدقائهم ومعارفهم ، مع التصرف على كل ما يتصل بهم من عادات وأفكار ومبادئ ومع محاولة تبين فترات نجاحهم واهفاقهم ، وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه طوال حياتهم في الغدو والرواح وفي الصباح والمساء » .

وقد حدد « سانت بيف » منهجه بقوله : « .. والمسألة الجوهرية .. هي الاحاطة بالانسان وتحليله في اللحظة التي تضاعفت فيها عبقريته وثقافته وكل ظروفه الاخرى ، فجعلته ينتج كتابه القيم ، فاذا فهمت الشاعر في هذه اللحظة ، واذا حللت هذه العقدة التي فيها يتجمع كل شيء في نفسه ، واذا وجدت مفتاح هذه الحلقة الغامضة التي تربط وجوده الثاني المشع المتألق الجليل بوجوده الاول الغامض المنزوي المتوارى الذي قد يربد الشاعر محو ذكره ، آنذاك يمكن أن يقال انك نفذت الى جوانب شاعرك وانك على علم به . »

ويقول عنه الدكتور غنيمي هلال في كتابه « الرومانتيكية » : « وسانت بيف » يعتمد على ملحوظاته الدقيقة في حياة الانسان

ليفسر بها انتاجه . ويبين اى نوع من الناس هو ، واثر حالته الطبيعية او المرضية ، ودلالة الصور التى يستعملها على استخدامه لحواسه وقواه .. فالنقد على حد تعبيره : « يعلم الآخرين كيف يفرون ؟ » ثم على النعد بعد ذلك ان يتجاوز القيم الجمالية الى بيان روح العصر من خلال نفسية المؤلف .

وقد تردد كثيرا فى شعر الشابى (١٩٠٩ - ١٩٣٤) ذكر المرض والموت والحب والحياة .. لكنه اتى فى اوانه ومات فى اوانه بعد ان قال كلمته : - وعمر الانسان لا يقاس بالسنوات ، بل بأشياء أخرى كثيرة - :

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

* * *

ان ذا عصر ظلمية غير اسى من وراء الظلام شمت صباحه

تونس ١٩٧٦

* * *